حافظ ابراهيم

لمصطفى صادق الرافعي

فرغتُ الآنَ من قراءة شعر حافظ بعد ان لم يَعُد حافظ بيننا الاّ شعرهُ ونثرهُ ، فبالله أحلفُ ما نظرتُ في صفحة مما بين يديَّ الاّ وأحسستُ ان ذلك الشاعر العظيم يقول في بيانه الرائع وصناعته البديعة : انا هُنا

ولغةُ هذا الشعر المتدفقة بالحياة كأن كلماتها القوية عروق في جسم حي متوثب — لم تخرج عن ان تكون هي العربية المبينة في جزالتها ونصاعتها ودقة تركيبها البياني ، ومع ذلك فليس في هذا العصر كله من يكابر او يُماري في انها هي لغة حافظ وحده كأنهُ ارغم التاريخ ان يحتفظ به في أجل آثاره

وأنا اعرف في شعره مواضع من الاضطراب والضعف والنقص مأشير الى بعضها ، ولكني على ما اعرفهُ اجد هذا الشعر كالتيار يعبُّ عُبابهُ لا يبالي ما تناثر منهُ وما ركد وما وقع في غير موقعه : اذ كانت عظمته في اجتماع مادته لا في اجزاء منها وفي السرّ الذي يدفعها في كل موضع لا في المظهر الذي تكون به في موضع دون موضع فهو ابداً يقول لمن يتصفح عليه او ينتقدهُ : انظر الى بقي

* * *

ترجع صداقتي لحافظ رحمهُ الله الى سنة ١٩٠٠ اول عهدي بالادب وطلبه وقد شهدتُ من يومئذ بناءه الادبي عالياً فعالياً الى الذروة التي انتهى اليها ، وأخلص لي ثقته وأصفاني مودته وكان تمثلك من اخ كريم وله في نفسي مكان لم يكدره مذ عرفته ولم يضق بمحبته منذ اتسع لها وكنت وإياه يرى احدنا الآخر من هذه الفنة كالجانبين لصورة واحدة لا يتهيأ في الطبيعة ان يختلفا والصورة بعدُ قائمة ولا ان يضطرب ما بينهما والصورة منهما على وزن وتقدير

ولكن هذا لا يمنعني ان اقرر انهُ كان عندي اكبر من شعره — ولعله كذلك عند كل من خلطوه بأنفسهم — فانهُ يتعاظمك بنفسه القوية وبالمعنى الذي تحسّهُ في العبقري ولا تدري ما هو . وذلك من سحر العبقريين وأثرهم في نفس من يتصل بهم فيتمُّ لهم امران من امر واحد وحظان بحظ ونصيبان بنصيب لان مع الاعجاب بآثارهم اعجاباً آخر بالقوة التي ابدعت هذه الآثار . ففي ذواتهم المحبوبة يستمر الاعجاب كالسائر على طريق لا موقف عليه

وفي آثارهم يكون الاعجاب في موقف قد انتهت الطريق به فوقف على حد إن تَحْمَد وان قرب
لاجرم كان شاعرنا عبقريًا عجيب الصنعة قوي الالهام بليغ الاثر في عصره يشبه نحواً لا
وقع في صورة من صور التاريخ : ولكنهُ كذلك في مذاهب من الشعر دون غيرها فلا يكن
ممة من النام في فنون الشعر ما يكون به الشاعر التام او الاديب الكامل الأداة . وكم من
مرة كلمتهُ في ذلك ونبهتهُ الى انهُ كالخط الواحد وانهُ يجب ان يترسَّل شعرهُ بين النفس الانسانية
وأغراضها الكثيرة المختلفة، فاذا كانت السياسة من الحياة فليست الحياة هي السياسة ولا ينبغي
ان يكون شعره كله كشمس الصيف فان الربيع شمساً اجمل منها وأحب كأنها مجتمعة من
ازهاره وعطره ونسيمه

ولقد كان يفخر بأنهُ (الشاعر الاجتماعي) وهذا لقب ميزه بهِ صديقنا الاستاذ محمد كرد علي ايام
كان في مصر قديماً فتعلق بهِ حافظ ورآه تعبيراً صحيحاً لما في نفسهِ وللملكة التي اختص بها
قال لي يوماً في سنة ١٩٠٣ : انا لا اعد شاعراً الا من كان ينظم في الاجتماعيات . فقلت لهُ
ومالك لا تقول بالعبارة المكشوفة إنك لا تعد الشاعر الا من ينظم مقالات الجرائد . . . .

ولا بدَّ لي ان ابسط هذا المعنى في هذا الفصل فانهُ كان يخيَّل اليَّ دائماً ان شاعرنا (حافظ) خلق للتاريخ في اصل طبيعتهِ ثم زيدت فيهِ موهبة الشعر ليكون مؤرخاً حيَّ الوصف بليغ التأثير قوي التصرُّف ، ومن ثم جاء اكثر ما نظمهُ وأساسه التاريخ والسياسة وصحَّ له بهذا الاعتبار ان يقول انهُ الشاعر الاجتماعي ، ولكن مادة الشعر غير روح الشعر فاذا كان في المادة اجتماعي وسياسي فليس في الروح الا الشاعر على اطلاقه . والاجتماعيات ليست كلَّ حقائق الحياة وهي بعد ذلك معان خاصة محصورة في زمنها ومكانها . على ان الحقائق ليست هي الشعر وانما الشعر تصورها والاحساس بها في شكل حيّ تلبسهُ الحقيقة من النفس. فالشاعر الاجتماعي شاعر في حيّز محدود من وجوه الشعر ومذاهبه واذا كان الاجتماع كل شعره فلا يسمى شعره فناً اذ كان الفن انسانيًا وكان شاملاً عامًا : والمقاييس التي يطرد عليها الفن الادبي لا تكون في الزمن ولا في الموضع بل في النفس الانسانية التي لا تخص بوقت ولا مكان . فاذا لم يكن الشعر انسانيًا عامًا يولد كل جيل من الناس فيجدهُ كأنما وضع لهُ وارتهن بأغراضهِ وحقائقهِ فهو شعر (كالاخبار المحلية) وهذا وجهُ الشبه بينه وبين ما اشرت اليهِ آنفاً من نظم مقالات الجرائد

فمقالات الجرائد هذه لا تأتينا بالاشياء التي نحن منها في الانسانية والطبيعة والجمال وحقائق الحياة والموت ، بل التي يكون منها يومنا المرقوم بأنهُ يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا . . . . فاذا مات اليوم ماتت الجريدة ثم تولد ثم تموت . وقد ادرك المتنبي سرَّ الشعر وانهُ قائم على تحويل الشعور الانساني الى معرفة انسانية فخلد شعره فلا يمكن ان يمحى من

العربية ما بقيت وهذا على ما يقدح من وجوه الاعتراض والنقص وعلى ان المتنبي كان ضعيفاً في ناحية الجمال والحب ضعفاً ظاهراً كضعف شاعرنا حافظ في هذا المعنى ؛ ولكن حكمته الانسانية ودقة اوصافه واقامته الفضائل والرذائل في كمالها الفني مقام تماثيل بارعة من الجمال، كل ذلك ترك شعره مستمراً باستمرار الحياة وباستمرار الانسانية وباستمرار الذوق

ان هذا الكون مبني في نفسه مما يعلم العلم تركيبه ولا يعلم سر تركيبه الا الله وحده ؛ ولكنهُ مبني في انفسنا من عمل الحواس ثم من التعليل والتفسير ، أما الحواس ففي كل حيّ لاتتخلق بصناعة ولا عمل ، وأما التعليل والتفسير فهما من صناعة الشاعر والاديب فكلاهما يُخلق لاتمام الخلق في الحقيقة وهي منزلة لا ادري كيف يمكن ان تمسخ حتى تقتصر على معنى الشاعر الاجتماعي او السياسي فترجع بهِ غلطاً ولحداً مع ان الآثار الادبية وفي جملتها الشعر ان هي الا قوى الفكر والهام النفس وبصيرة الروح مسجلة كلها في بواعثها ولسبابها من نفس عالية ممتازة ، وهذه القوى كثيرة التحول فيجب ضرورة ان تكون آثارها كثيرة التنوع . وتنوع الصور الفكرية في آثار الشاعر او الاديب ومجيئها متوافرة متتابعةً هو معيار أدبه وقياس نبوغه عالياً او نازلاً ومتسعاً او منكراً ونيا يضيء من نواحيه وما ينطوي

على ان شاعرنا الاجتماعي (كما كان يحب ان يوصف رحمهُ الله) وان كان قد نفخ في روح الشعب أنفاساً الهية واحسن في وصف حوادثه وآلامه وعيوبه وأبلغ البيانَ في كل ذلك — فانهُ نزل في هذه المرتبة عن وضعه الصحيح فكان في منزلته بمكان الشرطي في الطريق يقفه للجرائم والحوادث على حين ان مقامه الاجتماعي من الشعب مقام المعلم في مدرسته يجلس للطباع والاخلاق . ليس الشأن أن توجد في شعر الشاعر حوادث عصره اكثرها او اقلها فان فوق هذه منزلة اعلى منها وهي ان توجد حوادث النهضة بشعر الشاعر وأن يكون في شعره العنصر الناريُّ من اللغة الشعبية

على ان (حافظ) رحمه الله أدرك كل هذا في آخر عهده فكان يريد ان يعيث ديوانه ويستخرج منه جزءاً صغيراً يختار فيهِ الف بيت ويسقط ما عداها وإن . . وإن كان فيهِ شعر اجتماعي . . . . ومع هذا النقص الذي بعثت عنه طبيعة الزمن وطبيعة الشاعر معاً فان تمام حافظ في مذهبه الاجتماعي الذي نبغ فيه جاء من وراء القوة وفوق الطاقة لا يجاريه فيه شاعر آخر بحيث دلَّ على ان النابغة قَدَرٌ إلهي لا ينقص من عظمتهِ ان يكون حادثة واحدة تدوي دويها في الدنيا . فهو مُيَسَّرٌ منذ نشأته لما خُلق لهُ من ذلك فأحكَتهُ المدرسة الحربية ثم قيّدهُ الجيش ثم تقاذفهُ السودان ثم قذف به الظلم ثم تولاه امام عصره الشيخ محمد عبده وهو كذلك في غاياته الوعرة ومقاصده العمرانية ومعاناته للاصلاح — مدرسة حربية وجيش وفلاة . فلم يكن حافظ الا الصوت الانساني الذي أُعِدَّ بخصائصه للتعبير عن حوادث امته وخصائصها ،

حافظ ابراهيم

مقتطف : اكتوبر ١٩٣٢

أمام صفحة ٣٦٩

وكأنه في تنقله من السودان الى مصر قد انتقل من جيش يحارب الاقوام الاعداء لأمته الى جيش آخر يحارب المعاني الأعداء لامته

* * *

ولد حافظ ابراهيم سنة ١٨٧١ وكان الكتاب الاول الذي هداه الى سر الادب العربي وأرهف ذوقه وأحكم طبيعته هو كتاب الوسيلة الادبية للشيخ حسين المرصفي المطبوع في مصر لخمس وخمسين سنة : ففي هذا الكتاب قرأ حافظ خلاصة مختارة معتقة من فنون الادب العربي في عصوره المختلفة ودرس فوق البلاغة في اسمى ما يبلغ بها الذوق ووقف على أسرار تركيبها وعرف منه الطريقة التي نبغ بها البارودي وهي قراءته دواوين فحول الشعراء من العرب ومن بعدهم وحفظه الكثير منها ، فبنى شاعرنا من يومئذٍ قريحته على الحفظ ولم يزل يحفظ الى آخر عمره اذ كانت قريحته كآلة التصوير لا تُثبت لشيء الا علقته وهذا سبب من اسباب ضعف خياله ولكنه ردَّ عليه من القوة في اللغة ما تناهى فيه الى الغاية . واتفق لذلك العهد ان طبعت لزوميات المعري في مصر فتناولها حافظ واستظهر أكثرها فكانت باعث ميله ونزعته الى الشعر الاجتماعي . والفرق بين حافظ وبين المعري في الموهبة الفلسفية هو الذي نفذ بالمعري الى اسرار كثيرة ووقف بحافظ عند الظاهر وما حوله يطير هناك ويقع

فقد كان صاحبنا ضعيفاً من هذه الناحية فاستعصيت عليه اسرار واستغلقت أخرى من أسرار الخير والشر في الحياة ، والجمال والحسن في الخليقة ، والجلال والابداع في الكون والاقرار والشك في كل ذلك ، وقد بلغ المعري من هذا مبلغاً لا بأس به الا انه لم يَصف كما تصفو الاشياء في عين مبصرة تخبط وخلط ووضع من اغراض نفسه المريضة على الصحيح والمريض جميعاً . وتابعهُ حافظ في طريقة أخرى سنشير اليها بعد

وفتن شاعرنا بما قرأ في «الوسيلة» من شعر البارودي فأصبح من يومئذٍ تلميذه وسار على نهجه في قوة اللفظ وجزالة السبك ومتانة الصنعة وجودة التأليف بين نغم الالفاظ وأجراس الحروف ولكنه لم يدرك شأو البارودي في ذلك لان هذا جمع من دواوين الشعراء وكتب الادب ما لم يتفق لغيره في عصره وأدخل في شعره أحسن ما صنعت الدنيا في الف سنة من تاريخ البلاغة العربية ولذا انتقل عنه حافظ الى طريقة مسلم بن الوليد في التصنيع ولزمها الى آخر مدته

وابتدأ يعالج الشعر في السودان وينظم في جنس ما هو بسبيله من وصف الهم المستولي عليه من جميع جهاته اذ كان يتيماً فقيراً مشرَّداً ويرى نفسه شاعراً تصده الحياة عن منزلة الشاعر وعن أمكنة الشعر كالذي غُصِبَ ميراثه من عرش وملك ونُفي الى غير أرضه ووضعت روحه بازاء روح الفقر وقيل لها عدوٌّ ما من صداقته بُدُّ

ثم جاء الى مصر واتصل بالامام الشيخ محمد عبده واستقال من الجيش وفرغ للادب

فبدأ من ثمَّ تكوينه الادبي المتدمج المحكم . اما قبل ذلك الى سنة ١٩٠١ التي طبع فيها الجزء الاول من ديوانه فكان شعره قليلاً ظاهر التكلف واكثره يدل على طريقة مضطربة لم تستحكم وفكر لم ينضج وموهبة في التوليد الشعري بينها وبين الاستقلال أمد قريب

ودرس في مدرسة الشيخ محمد عبده من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩٠٥ وهذا الامام رحمه الله كان من كل نواحيه رجلا فذًّا وكأنه نبي تأخر عن زمنه فأعطي الشريعة ولكن في عزمته ووُهب الوحي ولكن في عقله واتصل بالسر القدسي ولكن من قلبه . ولولا هو ولولا انه بهذه الخصائص لكان حافظ شاعراً من الطبقة الثانية فانه من الشيخ وحده كانت له هذه القوة التي جعلته يصيب الالهام من كل عظيم يعرفه وكان له من أثرها هذا الشعر المتين في وصف العظماء والعظائم وهو أحسن شعره

ولم يجد حافظ من قومه ما يجعله لسانهم حتى تنطقه بالوحي نفسيتهم التاريخية الكبرى، ولا تولاه مَلك او امير رغب في أدبه رغبة اديب ملك او اديب امير ليظهر منه عبقرية جديدة في التاريخ ، ولا عرف الحب الذي يجعل للشاعر من سحر الحبيب ما يجمع النفسية التاريخية والملكية معاً ويزيد عليهما . وهذه الثلاثة التي لم تتفق لحافظ هي التي لا ينبغ الشاعر نبوغاً يفرده ويميزه الا بواحد منها او باثنين او بها كلها . غير ان حافظ وجد في الامام ما هو اسمى من كل هؤلاء في النفس والجاذبية وعرف فيه من ذوق الادب والبلاغة ما لم يعرف شاعر في ملك ولا أمير . وقد حضر دروسه في المنطق واسرار البلاغة ودلائل الاعجاز وخرج منها بذوقه الدقيق واسلوبه المتمكن ، وحضر مجالسه وخرج منها بمواضيعه الاجتماعية واغراضه الوثابة ، وحضر نظرات عينيه وخرج منها بروحانية قوية هي التي تتضرم في شعره الى الأبد . فحافظ احدى حسنات الشيخ على العالم العربي وهو خطة من خططه في عمله للاصلاح الشرقي الاسلامي والنهضة المصرية الوطنية واحياء العربية وآدابها، واذا ذكرت حسنات الشيخ أو عُدَّت للتاريخ وجب ان يقال اصلح ونقل وعمل وفسَّر القرآن وأنشأ حافظ ابراهيم

ومضى شاعرنا موجَّهاً بفكرة الامام وروحه واستمرَّ في ذلك بعد موت الشيخ كما يستمر النهر اذا احتفر مجراه لا يستطيع أن يخرج عنه ما دام يجري الى مَقارّه

* * *

وكان حافظ في بديعه وصناعته على مذهب مسلم بن الوليد كما قلنا وهو مثلهُ ابطأه في عمل الشعر وتلوُّماً على حوكه وانفراداً بكل لفظة منه وتقليباً للنظر فيما بين الكلمة والكلمة واعتبار كل بيت كالعروس لها معرض وحلية وزينة . فاذا عمل شعراً انبثت خواطره في كل وجه وذهب وراء الالفاظ والمعاني وترك هاجسه (العقل الباطن) يعمل عمله فيما التوى عليه او استصعب وهو واثق انه سينقاد ويتسهَّل بقوة ان لم تكن فيه الآن فستكون فيه . ثم

ينظم ما يتسمح إنجاؤه في موضعه من القصيدة او في غير موضعه فلا يتبع فيها نسقاً بعينه وانما القصيدة عنده كلّ سيجتمع من بعد ، تتهيأ اجزاؤه متسقة ومبعثرة كما يجيء بها الالهام واسباب الاتفاق . فالقصيدة أولاً في أبياتها ثم تكون أبياتها فيها اي ثم ترتب الابيات وتنزل في منازلها ، ولا ينظم الا متغنياً يروّض الشعر بذلك لان النفس تتفتح للموسيقى فتسمح وتنقاد . وهو يتبع في ذلك طريقة معروفة ذكرها ابن حجة الحموي في كتابه خزانة الادب وهي من وصية ابي تمام للبحتري وكان المتنبي يعمل عليها . وبالجملة فان حافظ يرتهن فكره بالقصيدة التي ينظمها ويتوفر عليها وعلى اسبابها لا كما يفرغ الشاعر للشعر ولكن كما يتوفر المؤلف العظيم على كتاب يؤلفه . وهو كذلك يبطىء في نثره اكثر مما يبطىء في الشعر ، دلني بنفسه رحمة الله على صفحة في الجزء الثاني من ترجمة البؤساء وقال انه ترجمها في خمسة عشر يوماً[1]

وحضرته مرة يترجم اسطراً من الجزء الاول (في قهوة الشيشة) يخطها في دفتر صغير دون حجم الكف فاجتمعت له ثلاثة اسطر في ثلاث ساعات وهذا لا يعيبهُ ما دام يريد قسط الفن وما دام يحاول أن يخرج الكلمات من طالها الى عالمه هو المتموّج من الالفاظ والعبارات بمثل الكواكب في الاستواء والجاذبية والشعاع والرونق والجمال

ويرى مع الصناعة ان يكون سبك شعره سبك البدوي المطبوع جزلاً سهلاً مشرقاً عتلئاً متعادل الاجزاء والتقاسيم يرنّ رنيناً كأنما قذفت به سليقة أعرابي فسيح تحت ضوء كواكب البادية على بَرد الرمل في نسمات الليل حين تعتلي تلك النفس البدوية بحنين الحب او شوق الجمال او عظمة القوة . وهذا هو الاصل الذي اتبعهُ وقفني عليه هو بنفسه في سنة ١٩٠٢ وقرظني به في الجزء الاول من ديواني فقال

أنت والله كاتبٌ حضريٌّ ... إن عددناك شاعراً بدويّا

ولو أنك أجريت شعر حافظ في أبلغ ما قاله المطبوعون من الاعراب وشعراء القرن الاول لالتأم به وزاد عليه في الصناعة وبعض المعنى . وقلّ ان تجد في شعره كلمة ينبو بها مكانها الا الفاظاً قليلة كان يستكرمها يحسب انه يستطرف منها ويرى في غرابتها شيئاً جديداً وهذا من خطأ رأيه في الاسلوب لانه مع بلاغته كان ينقصهُ ان يكون فيلسوفاً في البلاغة . وانا أرى انه لو تمت له الموهبة الفلسفية لما جاراه شاعر آخر ولكن الكمال عزيز في البشرية وقد عرفت رأيه في الاسلوب في سنة ١٩٠٦ اذ نشرت له مجلة الاقلام التي كان يصدرها صاحبنا الاديب جورج طنوس كلمات كان يريد ان يضمنها كتابه (ليالي سطيح) اظهر فيها رأيه في الشعراء فقال في اسماعيل صبري : يقول الشعر لنفسه لا للناس . وفي شوقي : ارق الشعراء طبعاً

(١) لما اهدى الي هذا الجزء كنا قبل الظهر فلم يدعني حتى قرأته كله معه الى العصر وكتبت عنه في المقطم بعد ذلك

وأسماهم خيالاً . وفي مطران أسرعهم بديهة وأقدرهم ابتكاراً . وقال فيَّ ولم يكن مضى على الا ست سنين في طلب الادب : مكثار رائق الخيال بعيد الشوط في ميادين الأدب غير ناضج الاسلوب . فلما اجتمعت به فاتحتهُ في ذلك وسألتهُ رأيه في الاسلوب الناضج فلم أر عنده طائلاً وكل ما قاله في ذلك ان الشيخ عبد القاهر الجرجاني قرر ان البلاغة ليست في اللفظ ولا في المعنى ولكنها في الاسلوب . وعبد القاهر لم يقل هذا ولا قاله غيره فان الاسلوب عنده « طريقة مخصوصة في نسق الالفاظ بعضها على بعض لترتيب المعاني في النفس وتنزيلها» « وان المنزلة من حيّز المعاني دون الالفاظ وانها ليست لك حيث تسمع باذنك بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك »

وقد قررت له ان للالفاظ ما يشبه الألوان فليست كلها زرقاء ولا صفراء ولا حمراء . وربَّ لفظة رقيقة تقع ضعيفة في موضع فيكون ضعفها في موضعها ذاك هو كل بلاغتها وقوتها كفترة السكوت بين النغام الموسيقى هي في نفسها صمت لا قيمة له ولكنها في موضعها بين الانغام نغم آخر ذو تأثير بسكونه لا برنينه وهذا من روح الفن في الاسلوب

وأدرك شاعرنا من يومئذ ما تعيبه قوة الضعف ولعلَّ هذا هو السبب في أن طبعهُ رجع يعدل به الى التسهيل حتى انه لتقع في شعره ابيات متهافتة فيأتي بها ولا ينكرها . ولقيني مرة فانشدني قول الشاعر :

أنا لم أرزق محبتَها انما للعبد ما رُزقا

وجعل يُعجبني من بلاغة قوله (لم أرزق) وانها مع ذلك ضعيفة مُبتذلة تجري في منطق كل عامي قلت ولكن (محبتها) جعلتها كحبتها . . . .

* * *

وضعف الموهبة الفلسفية في حافظ عوّضه ناحية أخرى من اقوى القوة في الشعر وهي اهتداؤه الى حقيقة الغرض الذي ينظم فيه وتركه الحواشي والزيادات وانصراف قواه الى دقة الوصف حين يصف وتعويله على احساسه اكثر من تعويله على فكره ، فزاد ذلك في رونق شعره ومائه ونحا به منحى المطبوعين فخرج بتدفق سلاسةً وحلاوة ممتلئاً من صواب المعنى وبلاغة الأداء وقوة التأثير . وبهذا نبغ في الرثاء ووصف الفجائع نبوغاً انفرد به حتى لأحسب أن هناك رُوحاً يمده في هذه المواقف وأن الحقيقة تتبرّج لهُ في هذه المعاني خاصة ليرى منها ما لا يراه غيره . وهو يتحد بالعظيم الذي يرثيه فيجيد فيمن يعرفهُ اجادة منقطعة النظير تتبين الفرق بينها وبين شعره فيمن لا يعرفه تلك المعرفة . وأحسبهُ يسأل روح العظيم الذي يصفهُ او يرثيه : أين المعنى الذي فيه حقيقتك وأين الحقيقة التي فيها معناك والفلسفة الشعرية كلها أن يحل في الشاعر الملهمَ ذلك السرُّ الجليل الجاذبُ والمنجذبُ

معاً المستقر والمتحول جمعاً الباطن والظاهر في وقت، فيكشف الشاعر ما لا يدركه غيره فيقف على الجمال والحسن والرقة ويلهم الحكمة والبصيرة ويتناول الأغراض بالتحليل والتركيب ويرقى التعبير عن كل ذلك في طريقة خاصة به هي أسلوبه وهذا لم يتفق على أتمه وأحسنه في حافظ فتقصر به في توليد المعاني المبتكرة ونزل به في الغزل ووصف الجمال . بيد أنه اتفق له مثل هذا الجلال بعينه في (الجانب المتألم من شعره) اي الرثاء والشكوى ووصف الفجيعة؛ ولو ذهبت تستعرض المراثي في الشعر العربي ومثلت بينها وبين رثاء حافظ للعظماء الذين خالطهم كالاستاذ الامام والبارودي ومصطفى كامل وثروت، لراعك انك واجدٌ للشعراء ما هو اسمى من معانيه واقوى من خياله ولكنك لا تجد البتة ما هو افخم وادق مما جاء به في هذا الباب كأنهُ منفرد في العربية بهذه الخاصة.

وهذا المعري يقول :

ولولا قولك الخلاّق ربي لكان لنا بطلعتك افتتان

ويقول في شعر آخر

أسهب في وصفه علاك لنا حتى خشينا النفوس تعبدها

وهذان البيتان تراهما صعلوكين اذا قستهما بقول حافظ في رثاء الشيخ عبده :

فلا تنصبوا للناس تمثال (عبده) وان كان ذكرى حكمةٍ وثباتِ

فاني لأخشى ان يضلّوا فيُومئوا الى نور هذا الوجه بالسجداتِ

مع ان معنى حافظ مأخوذ منهما ولكن انظر كيف جاء به. ويقول المعري في رثاء ابيه

ولو حفروا في درّة ما رضيتُها لجسمك ابقاء عليك من الدفنِ

ويقول في رثاء غيره :

واخبُواه الأكفان من ورق المصحف كبراً عن أنفس الابرار

وهذان ايضاً كالصعاليك عند قول حافظ في البارودي :

لو أنصفوا أودعوه جوف لؤلؤة من كنز حكمته لا جوف اخدودِ

وكفنوه بدَرْج من صحيفته او واضح من قميص الصبح مقدودِ

مع ان حافظ ألمّ بقول المعري . ومن بديع ما اتفق لهُ في قصيدة (الامتان تتصافحان) قوله يصف السوريين :

رادوا المناهلَ في الدنيا ولو وجدوا الى المجرّة ركباً صاعداً ركبوا

او قيل في الشمس للراجين منتجعٌ مدّوا لها سبباً في الجوّ وانتدبوا

فاقرأ هذين واقرأ بعدهما قول المتنبي في سيف الدولة

وَصولٌ الى المستصعبات بخيلهِ فلو كان قرن الشمس ماءً لأوردا

فانك تجد بيت المتنبي صعلوكاً على بيتي حافظ مع انهُ المتدع السابق

وأعجب ما عجبت له هذا البيت من شعر صاحبنا في مقطوعة يخاطب بها الامريكان نشرها في المقطم من ثلاث سنوات او نحوها . قال :

وتخذتم موج الاثير بريدا   حين خلتم أن البروق كُسالى

واتفق يومئذٍ أن كنت جالساً في زيارة الصديق الاستاذ فؤاد صرّوف محرر المقتطف فجاء حافظ فلم يكد يصافحني حتى قال كيف ترى هذا البيت وتخذتم موج الاثير بريداً الخ فاثنيت عليهِ الثناء الذي يهوى وهنأتهُ بهذا المعنى واظهرت له ما شاء من الاعجاب ولكني أضمرت عجبي من حسن ما اتفق له،فان الجمال الشعري في البيت انما هو في استعارة الكسل للبروق وهذا بعينه من قول ابن نباتة السعدي في سيف الدولة :

وما تمهّل يوماً في ندًى وردًى   الاَّ قضيتُ للمح البرق بالكسل

غير ان حافظاً نقل المعنى الى حقهِ ومكّن له أحسن تمكين في صدر كلامهِ واتمَّ جماله في قوله (حين خلتم) فانتظم المعنى وانفرد بهِ وعاد معنى السعدي كالصعلوك على باب بيتهِ . وكانت هذه المقابلة في المقتطف آخر عهدي بحافظ فلم ارهُ من بعدها رحمهُ الله

وما مرَّ بك انما كان من صناعة الشاعر في غير الجزء الاول من ديوانه بعد ان استفحل وتخرّج في مدرسة الامام ، اما في الجزء الاول فهو هو صعاليك . . . . كقوله في الخمر

خمرة قيل انهم عصروها   من خدود الملاح في يوم عُرْسِ

فهذا البيت صعلوك عند قول ابن الجهم :

مُشَعْشَعَةٌ من كف ظبي كأنما   تناولها من خده فأدارها

وقول حافظ (عصروها من خدود الملاح) كلام من لم ينضج في البيان ولا الذوق لا يكاد يُتوهّم معهُ الاَّ ان في خدود الملاح (خرابات) عصرت . . . . وعلى ضد هذا قول ابن الجهم (تناولها من خدهِ) فهي كلها اكثر نعومة من ذلك الخد واجمل نضرة

وقول حافظ في مدح الخديوي :

يا من تنافس في اوصافه كلمي   تنافس العرب الامجاد في النسب

فهو صعلوك على بيت ابي تمام

تَغايَرَ الشعر فيهِ إذ سهرتُ له   حتى ظننتُ قوافيه ستقتتلُ

ولا نطيل الاستقصاء فانما نريد التمثيل حسبُ

وكان الشاعر اول نشأته يأخذ في طريقة المعري الذي عمي عن الطبيعة فجعل يخلقها من فكره وعفوه فيبالغات كاذبة يُغرق فيها يحسبانهُ بذلك يعظم الحقائق فتخرج له الاخيلة الكبيرة وما يدري انهُ بهذا الغلوّ لا يجيء الاَّ بالاباطيل الكبيرة . . . ولكن حافظاً في

مزاجه وتركيبه ونشأته كان رجلاً مبنياً على الوضوح والقصد فلم ينلح في طريقة المعري ووضوحه كذلك بَعدهُ من الفلسفة وابهامها ومن الطبيعة والغازها ومن الغزل ووساوسه ، وهو الذي اداه الى الشغف بالحقيقة واستخلاصها في كل اغراضه التي أجاد فيها . ومن ثم خلا شعره او كأنهُ خلا . . . . . من أوصاف الطبيعة في جمالها بلغة الفكر المتأمل ومن اوصاف الجمال في سحره بلغة القلب العاشق

* * *

وانت فلا تحسبنَّ الشاعر يجيد في الغزل والنسيب من انهُ شاعر يحسن الصنعة ويجيد الاسلوب فيكون غرضٌ من الشعر سبيلاً الى غرض وفن عوناً على فن وتكون رقة الالفاظ وخلهلهُ النسج وقلبي وكبدي ويا ليلةً ويا قمراً ويا غزالاً .... واشباه ذلك غزلاً ونسيباً . كلاً ثم كلاً والثالثة . كلاً ايضاً . . .

ان الغزل واوصاف الجمال موهبة في الشاعر او الكاتب تُسخَّر لها قوى هي اشبه في معجزاتها بما سخر لسليمان من قوى الجن والريح غير انها قوى آلام ولذات ووساوس . تلك عظمة في بعض النفوس الشاعرة كعظمة الملوك والابطال غير انها لا تكمل الا غالبة او مغلوبة فاذا اتصرت سقطت . فلا بد لها من تاريخ وحوادث ومزاج عصبي يُهيئاً لها روحانية شديدة الحس شديدة الفوْرة ثائرة أبداً لا تهدأ الا على توليد معنى بديع في جمال من محبةٍ او كمالهِ . ثم اذا هدأت بذلك آثارها انها هدأت فتعود الى التوليد فلا تزال تبتدع وتصف كأنها آلة تعبير تدور بقلب وعصب . هناك قوتان احداهما توتي الحب كما يصلح غراماً وعشقاً والاخرى فوق هذه توتي الحب كما يصلح فكراً وتعبيراً . والاولى تجعل صاحبها عاشقاً يحب ويدرك ليس غير ؛ والثانية تجعله محبّاً اعماله ان ينقل من لغة ما في نفسه الى ما حوله ومن لغة ما حوله الى ما في نفسه فهو مترجم النفس الى الطبيعة ومترجم الطبيعة الى النفس . والذي اعرفهُ ان حافظ لم يرزق لا هذه ولا تلك فلا طبيعة فيهِ للغزل وفلسفة الجمال . ثم ان التاريخ حصره في (الشاعر الاجتماعي) الذي اختار ان يمتاز به فهو في اكثر شعره كان ليس فيه شخص بل فيهِ شعب مأسور غفل عن الجمال وعن الطبيعة وعن النشوة بهما ، اذ يعيش في معاناة الحرية لا في التأمل الجميل وفي اسباب القوة لا في اسباب الرقة ويريد ان يعمل ليوجد حقيقته قبل ان يعمل ليُبدع خيالهُ

ومع ذلك فقد جاء في ديوان حافظ غزل قليل كان كله متابعة وتقليداً في فن يحسن التقليد الا فيهِ خاصة . عمل صدراً لقصيدة مدح بها الخديوي مطلعها :

كم تحت أذيال الظلام متيمٌ داسي الفؤاد وليله لا يعلمُ . . . .

وقلد ابن ابي ربيعة في حكاية حب لفقها تلفيقاً ظاهراً ثم زعم ان الحبيبة قالت لفي آخرها :

فاذهب بسحرك قد عرفتك واقتصد ... فيم تزين لحسان وترو؟
وكلمة صاحبة إبن ابي ربيعة :

اهذا سحرك النسوان ؟ قد عرفتني الخبرا

اهذا سحرك النسوان ؟ هذه كلمة لا تخرج الاّ من فم حبيبته آية في الظرف وفيها تمامها وعرقتها وابتسامها واشراق وجنتيها وأكاد والله اري فيها تلك الجيلة وهي تدق بيدها على صدرها دقة الاستفهام المتدلل المتظاهر بالدهشة لينهد فيه الكلام والمتكلم معاً، اما قول حبيبة حافظ الحشبية او الحجرية . . . . . . اذهب . . قد عرفتك واقتصد ....فهذا خليق ان يكون من فم قاض وهو ينصح المتهم بعد الامر بالافراج عنهُ . . . او مأمور قسم عند ضبط الحادثة

اكبر ظني ان روح حافظ نفسه هي التي اوحت اليَّ الآن هذه (النكتة) فانهُ رحمهُ الله كان آية في هذا الباب ولهُ من النوادر محفوظة ومخترعة ما لا يلحق فيه . ولو كان كاتباً على قدر ما كان شاعراً وزاول النقد واستظهر للكتابة فيه بتلك الملكة المبدعة في التندُّر والتهكم مع ما أوتي من القوة في اللغة والبيان — لكانت النعمة قد تمت به على الادب العربي ولتفنا في شعره وكتابته وأدبه ما قال هو في الاستاذ الامام : فأطلعت نوراً من ثلاث جهات

وما دمنا قد ذكرنا النقد في الرثاء للتاريخ الادبي ان نذكر مذهب شاعرنا فيه . فلم يكن عنده منهُ الاّ ذوق الكلام وادراك النفرة والنبرة في الحرف والغلظ والجساءة في اللفظ والضعف والتهافت في التركيب ، ثم ما يجيء في الخاطر او يتجلجل في الفكر من ذوق المعنى وادراك كنهه والنفاذ الى آثار النفس الحية فيه . فكان النقد هو الحسُّ بالكلام كما تلمس الحار والبارد وما بينهما . ووصف لي مرة اسمعيل صبري باشا وأراد ان يبالغ في دقة تمييزه وحسن بصره بالشعر وادراكه دقائق المعاني فقال :

« ذوّاق يا معطفي » ولم يزد

ومذهب الحسّ بالكلام هذا وان صلح ان يكون من بعض معاني النقد فلا يتهيأ ان يكون هو النقد بمعناه الفلسفي او الادبي وهو في جملة امره كقولك حسن حسن وردي، ردي، اما كيف كان حسناً او رديئاً وبماذا ولماذا فذلك ما لا سبيل اليه من مذهب(ذوّاق) . . . ولا وسيلة له الاّ العلم المستفيض والاطلاع الواسع والحسُّ المرهف والقدرة المتمكنة مضافة كلها الى الادب البارع وفلسفته الدقيقة . ولا نعرف لحافظ كتابة في النقد البتة وقد كان حاول شيئاً من هذا في مقدمة كتابه (ليالي سطيح) فتناول بعض خصومه بكلمات رأى هو ان يمحوها بعد ان طبعت الكراسة الاولى فأسقطها وأعاد كتابة المقدمة وطبعها مرة ثانية وكانت عندي النسخة التي محاها وهذا ما لا اظنّ احداً يعرفهُ الآن . رحم الله شاعراً كان اصفى من الغمام وكان شعره كأنهُ البرق والرعد . . . .